بَابٌ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية

مناسبة هذا الباب لما قبله

مناسبته أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحدًا بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحدًا؛ فيقوم بما أمر الله به.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. الخطاب للنبي ﷺ، وكان يحب هداية عمّه أبي طالب أو من هو أعم. فأنت يا محمد المخاطب بكاف الخطاب، وله المنزلة الرفيعة عند الله لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنّه إذا أحب هدايته؛ فسوف يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكّن من هٰذا الأمر؛ لأنَّ الأمر كله بيد الله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فأتى بـ «أل» الدالة على الاستغراق؛ لأنَّ «أل» في قوله: «الأمر» للاستغراق؛ فهي نائبة مناب كل؛ أي: وإليه يرجع كل الأمر، ثم جاءت مؤكّدة بكل، وذلك توكيدان.

والهداية التي نفاها الله عن رسوله ﷺ هداية التوفيق، والتي أثبتها له هداية الدلالة والإرشاد، ولهٰذا أتت مطلقة لبيان أن الذي بيده هو هداية الدلالة فقط، لا أن يجعله مهتديًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ؛ .....

مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فلم يخصص سبحانه فلانًا وفلانًا ليبيِّن أن المراد؛ أنك تهدي هداية دلالة، فأنت تفتح الطريق أمام الناس فقط وتبيِّن لهم وترشدهم، وأمَّا إدخال الناس في الهداية؛ فهٰذا أمر ليس إلى الرسول ﷺ، إنَّما هو مما تفرَّد الله به سبحانه؛ فنحن علينا أن نبيِّن وندعو، وأمَّا هداية التوفيق (أي أن الإنسان يهتدي)؛ فهٰذا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وهٰذا هو الجمع بين الآيتين.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ظاهره أنَّ النبي ﷺ يحب أبا طالب؛ فكيف يؤول ذٰلك؟

والجواب: إمَّا أن يُقال: إنَّه على تقدير أنَّ المفعول محذوف، والتقدير. من أحببت هدايته لا من أحببته هو. أو يُقال: إنَّه أحب عمّه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافرًا. أو يُقال: إنَّ ذٰلك قبل النَّهي عن محبَّة المشركين. والأول أقرب؛ أي: من أحببت هدايته لا عينه، وهٰذا عام لأبي طالب وغيره. ويجوز أن يحبه محبة قرابة، ولا ينافي هٰذا المحبَّة الشرعية، وقد أُحبُّ أن يهتدي هٰذا الإنسان، وإن كنت أبغضه شخصيًا لكفره، ولٰكن لأنّي أحب أن النَّاس يسلكون دين الله.

* * *

قوله: «في الصحيح»: سبق الكلام على مثل هٰذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «أبا»: بالألف: مفعول به منصوب بالألف؛ لأنَّه من الأسماء الخمسة، و **«الوفاة»** يعني: الموت، فاعل حضرت.

جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهلٍ، فَقَالَ لَهُ: «**يا عم قل لا إله إلا الله كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**». .....

قوله: «**فقال: يا عم! قل لا إله إلا الله**»: أتى ﷺ بهٰذه الكنية الدالة على العطف؛ لأنَّ العم صنو الأب؛ أي: كالغصن معه. والصِّنْو: الغصن الذي أصله واحد؛ فكأنه معه كالغصن.

قوله: «**يا عم**» فيها وجهان: يا عم؛ بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء. ويا عم؛ بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله: «**قل: لا إله إلا الله**» يجوز أنَّه قاله على سبيل الأمر والإلزام؛ لأنَّه يجب أن يأمر كل أحد أن يقول: لا إله إلا الله. ويجوز أنه قاله على سبيل الإرشاد والتوجيه. ويجوز أنَّه قاله على سبيل الترجِّي والتلطُّف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هٰذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهٰذا بادر بالإنكار.

قوله: «**كلمة**»: منصوبة؛ لأنَّها بدل لا إله إلاّ الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنَّصب أن تكون بالرَّفع؛ أي: هي كلمة، ولٰكن النَّصب أوضح.

قوله: «**أُحاجُّ**»: بضم الجيم وفتحها: فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح فهي مجزومة جوابًا للأمر: «**قل**»؛ أي: قل أحاج. وقال بعض المعربين: إنَّها جواب لشرط مُقدَّر؛ أي: إن تقل أحاج، والأول أسهل؛ لأنَّ الأصل عدم التقدير. والمعنى: أذكرها حجة لك عند الله، وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله، وإن كان بعض أهل العلم قال: إنَّ معناها أجادل الله بها، ولٰكن الذي يظهر لي أنَّ المعنى: أحاج لك بها عند الله؛ أي: أذكرها حجة لك كما جاء في بعض

فَقَالاَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**».

الروايات: «**أشهد لك بها عند الله**»[1].

قوله: «فقالا له: أترغب عن ملَّة عبد المطَّلب؟»: القائلان هما: عبد الله بن أبي أميَّة، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه؛ لأنَّهما عرفا أنَّه إذا قالها ـ أي كلمة الإخلاص ـ وحَّد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملَّة آبائه. وقد مات أبو جهل على ملَّة عبد المطلب، أمَّا عبد الله بن أبي أميَّة والمسيب الذي روى الحديث، فأسلما؛ فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضي الله عنهما.

قوله: «ملَّة عبد المطلب»: أي: دين عبد المطلب.

قوله: «فأعاد عليه النبي ﷺ»: أي: قوله قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

قوله: «فأعادا عليه»: أي قولهما: أترغب عن ملَّة عبد المطلب.

قوله: «فقال النبي ﷺ: لأستغفرنَّ لك...» إلخ: جملة «**لأستغفرنَّ لك**» مؤكَّدة بثلاث مؤكِّدات: القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة. والاستغفار: طلب المغفرة، وكأنَّ النبي ﷺ في نفسه شيء من القلق، حيث قال: «**ما لم أُنْهَ عنك**»؛ فوقع الأمر كما توقَّع ونهي عنه.

---

(١) رواه: مسلم (كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ١/ ٥٤).

فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾[1].

قوله: «ما لم أُنْهَ عنك»: فعل مضارع مبني للمجهول، والناهي عنه هو الله.

قوله: «ما كان»: ما: نافية، وكان: فعل ماض ناقص.

قوله: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾: أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾: خبرٌ مقدَّم؛ أي: ما كان استغفاره. واعلم أنَّ ما كان أو ما ينبغي أو لا ينبغي ونحوها إذا جاءت في القرآن والحديث؛ فالمراد أنَّ ذلك ممتنع غاية الامتناع؛ كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠]، وقوله ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**»[2].

وقوله: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾؛ أي: يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾: أي: حتَّى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبي ﷺ، ومرَّ بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له؛ فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة[3]. فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين؛ لأنَّ

(١) سورة التوبة: الآية ١١٣.

(٢) من حديث أبي موسى، رواه: مسلم (كتاب الإيمان، باب في قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينام»، ١/ ١٦٠).

(٣) من حديث أبي هريرة، رواه: مسلم (كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل زيارة أمه، ٢/ ٦٧١).

وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(١)(٢).

هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً للمغفرة إذا دعوت الله أن يفعل ما لا يليق؛ فهو اعتداء في الدعاء.

قوله: «**وأنزل الله في أبي طالب**» أي: في شأنه.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: الخطاب للرسول ﷺ. أي لا توفق من أحببت للهداية.

قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: أي يهدي هداية التوفيق من يشاء واعلم أن كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى؛ فهو مقرون بالحكمة؛ أي: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنَّه يهتدي، ومن اقتضت حكمته أن يضلّه أضله.

وهٰذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره؛ فالذين يلجؤون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون؛ فلا ينفعهم ذٰلك لأنَّه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنَّه قد قام معه قيامًا عظيمًا، ناصره وآزره في دعوته؛ فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!

● **الإشكالات الواردة في الحديث:**

الإشكال الأول: الإثبات والنفي في الهداية، وقد سبق بيان ذٰلك(٣).

الإشكال الثاني: قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكل مع قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٦.

(٢) رواه: البخاري (كتاب التفسير، باب ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ٣/ ٢٧٣)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ١/ ٥٤).

(٣) (ص٣٤٨).

.....

ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وظاهر الحديث قبول توبته. والجواب عن ذٰلك من أحد وجهين:

الأول: أن يُقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولٰكن عرف موته لا محالة، وعلى هٰذا؛ فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أنَّ هٰذا خاص بأبي طالب مع النبي ﷺ، ويستدل لذٰلك بوجهين:

أ ـ أنَّه قال: «**كلمة أحاج لك بها عند الله**»، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

ب ـ أنَّه سبحانه أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهٰذا لا يستقيم إلاّ له، والشفاعة له لِيُخَفَّف عنه العذاب.

ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت: بأنَّ قوله: «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**» مطابقًا تمامًا لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وعلى هٰذا يكون الأوضح في الجواب أن هٰذا خاص بالنبي ﷺ مع أبي طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ في سورة التوبة، وهي متأخرة مدنيَّة، وقصة أبي طالب مكيَّة، وهٰذا يدلّ على تأخّر النَّهي عن الاستغفار للمشركين، ولهٰذا استأذن النبي ﷺ للاستغفار لأمّه[1] وهو ذاهب للعمرة. ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهي؛ فدل على تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها في

(١) سبق (ص٣٥٢).

● فيهِ مَسائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية.

الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، وليس المعنى أنَّها نزلت في ذٰلك الوقت. وقيل: إنَّ سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

الإشكال الرابع: أنَّ أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إلٰه إلا الله، لٰكن بدون قول قل؛ لأنَّه ربما مع الضجر يقول: لا؛ لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هٰذه الكلمة أو معناها، وفي هٰذا الحديث قال: «**قل**».

والجواب: أنَّ أبا طالب كان كافرًا، فإذا قيل له: «قل» وأبى؛ فهو باقٍ على كفره، لم يضرَّه التلقين بهٰذا؛ فإمَّا أن يبقى على كفره ولا ضرر عليه بهذا التلقين وإمَّا أن يهديه الله، بخلاف المسلم؛ فهو على خطر لأنَّه ربما يضرّه التلقين على هٰذا الوجه.

* * *

فيه مسائل:

● **الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾** أي: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبيَّنَّا أنَّ الرسول ﷺ إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحدًا وهو حي؛ فكيف يستطيع أن يهدي أحدًا وهو ميِّت؟! وأنَّه كما قال الله تعالى في حقِّه: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

● **الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾** الآية: وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولي قربى.

الثالثة: وَهِيَ المَسْأَلَةُ الكَبِيرَةُ، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «**قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**»؛ بِخِلاَفِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ.

الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَالَ

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: المرحوم؛ فإنَّه حرام لأنَّ هٰذا مضادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وكذٰلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره؛ لأنَّ المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتى يكون الدين كلّه لله.

● **الثالثة: وهي المسألة الكبيرة**: أي: الكبيرة من هٰذا الباب، وقوله (أي قول النبي ﷺ) لعمه: «**قل: لا إله إلا الله**»، وعمه عرف المعنى أنه التبرؤ من كل إلٰه سوى الله، ولهٰذا أبى أن يقولها لأنَّه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: «بخلاف ما عليه من يدعي العلم» كأنَّه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى لا إلٰه إلا الله، حيث يقولون: إنَّ الإلٰه هو القادر على الاختراع، وإنَّه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلاّ الله، وهٰذا تفسير باطل.

نعم، هو حق لا قادر على الاختراع إلاّ الله، لٰكن ليس هٰذا معنى لا إلٰه إلاّ الله، ولٰكن المعنى: لا معبود حق إلا الله؛ لأنَّنا لو قلنا: إن معنى لا إلٰه إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله؛ صار المشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين؛ فالظاهر من كلامه رحمه الله أنه أراد أهل الكلام الذين يفسِّرون لا إلٰه إلا الله بتوحيد الربوبيَّة، وكذٰلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إلٰه إلا الله.

● **الرابعة: أنَّ أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ: أبو جهل**

لِلرَّجُل: قُلْ: «لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ»؛ فَقَبَّحَ اللَّهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الإِسْلاَمِ.

الخامسة: جِدُّهُ ﷺ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلامِ عَمِّهِ.

ومن معه يعرفون مُراد النبي ﷺ بقول: لا إله إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: «**أترغب عن ملة عبد المطَّلب؟**»، وهو أيضًا أبى أن يقولها لأنَّه يعرف مراد النبي ﷺ بهٰذه الكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦].

فالحاصل أنَّ الذين يدَّعون أنَّ معنى لا إلٰه إلا الله؛ أي: لا قادر على الاختراع إلاّ هو، أو يقولونها وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبي جهل. واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل لأنَّهم أسلموا، وبذٰلك صاروا أعلم ممن بعدهم، خاصة من هم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف رحمه الله.

● **الخامسة: جده ومبالغته في إسلام عمه**: حرصه ﷺ وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث؛ لسببين هما:

١ ـ القرابة.

٢ ـ لما أسدى للرسول والإسلام من المعروف؛ فهو على هٰذا مشكور، وإن كان على كفره مأزورًا وفي النار، ومن مناصرة أبي طالب أنَّه هجر قومه من أجل معاضدة النبي ﷺ ومناصرته، وكان يعلن على الملأ صدقه ويقول قصائد في ذٰلك ويمدحه، ويصبر على الأذى من أجله، وهٰذا جدير بأن يحرص على هدايته، لٰكن الأمر بيد مقلِّب القلوب كما في الحديث: «**إنَّ قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب**

السادسة: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ المُطَّلِبِ وأَسْلَافِهِ.

السابعة: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَن ذٰلك.

الثامنة: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الإِنْسانِ.

واحد، يصرفه حيث يشاء»، ثم قال ﷺ في نفس الحديث: **«اللهم! مصرِّف القلوب! صرِّف قلوبنا على طاعتك»**[1].

● **السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب**: بدليل قولهما: **«أترغب عن ملة عبد المطلب؟»** حين أمره النبي ﷺ أن يقول لا إله إلا الله، فدل على أنَّ ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

وفي الحديث رد على من قال بإسلام أبي طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قبَّحهم الله؛ لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

● **السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يُغفر له**: الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذٰلك اقتضت حكمة الله أن لا يُجيب دعاءه لعمه أبي طالب؛ لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] ليس لأحد تصرّف في هٰذا الكون إلاّ ربّ الكون. وكذا أمُّه ﷺ لم يؤذن له في الاستغفار لها؛ فدلَّ على أنَّ أهل الكفر ليسوا أهلاً للمغفرة بأي حال، ولا يُجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنَّما يُدعى لهم بالهداية وهم أحياء.

● **الثامنة: مضرَّة أصحاب السوء على الإنسان**: المعنى أنه لولا

---

(١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رواه: مسلم (كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى للقلوب كيف يشاء، ٤/ ٢٠٤٥).

التاسعة: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الأَسْلَافِ وَالأَكَابِرِ.

هٰذان الرجلان؛ لربما وفّق أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبي ﷺ، لٰكن هٰؤلاء ـ والعياذ بالله ـ ذكّراه نعرة الجاهليَّة ومضرَّة رفقاء السوء، ليس خاصًّا بالشرك، ولٰكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبَّه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكير؛ إمَّا أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة[1]، وقال ﷺ: «**فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه**»[2]، وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذٰلك روي عن النبي ﷺ بسند لا بأس به: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يُخالل**»[3]؛ فالمهمّ أنَّه يجب على الإنسان العاقل أن يُفكِّر في أصحابه: هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم لأنهم أشد عداءً من الجرب، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير؛ فعليه بهم.

● **التاسعة: مضرَّة تعظيم الأسلاف والأكابر**: لأنَّ أبا طالب اختار أن يكون على ملَّة عبد المطلب حين ذكَّروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ. وهٰذا ليس على إطلاقه؛ فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذٰلك فلا يضرّ، بل هو خير؛ فأسلافنا من صدر هٰذه الأمة لا شكَّ أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم والسِّن؛ فليس فيه مضرَّة، وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل؛ فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً: من يُعظِّم أبا جهل لأنَّه سيد أهل الوادي، وكذٰلك

---

(١) من حديث أبي موسى، رواه: البخاري (كتاب الذبائح، باب المسك، ٣/ ٤٦٣)، ومسلم (كتاب البر، باب استحباب مجالسة الصالحين، ٤/ ٢٠٢٦).

(٢) سبق (ص٦٣).

(٣) من حديث أبي هريرة، أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤).
ورواه أبو داود (كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ٥/ ١٦٨)، والترمذي (الزهد، باب الرجل على دين خليله، رقم ٢٣٧٩) ـ وقال: «حسن غريب» ـ.

العاشرة: الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلينَ فِي ذٰلِكَ؛ لاسْتِدْلالِ أَبِي جَهْلٍ بِذٰلِكَ.

عبد المطَّلب وغيره؛ فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر؛ لأنَّهم أعداء الله ـ عز وجل ـ، وكذلك لا يُعظِّم الرؤساء من الكفَّار في زمانه؛ فإنَّ فيه مضرَّة لأنَّه قد يُورث ما يُضادّ الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلَّة من الكتاب والسنة.

● **العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك:**
شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: «**أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟**»، وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. فالمبطلون يقولون في شبهتهم: إن أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفِّه أحلامهم، ونضلل ما هم عليه؟ وهذا يُوجد في المتعصِّبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآنًا ولا سُنَّة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إنَّ بعضهم يجعلهم معصومين؛ كالرَّافضة، والتيجانيَّة، والقاديانيَّة، وغيرهم؛ فهم يرون أنَّ إمامهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا.

والواجب على المرء أن يكون تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وأما من خالفه من الكُبراء والأئمة؛ فإنَّهم لا يُحتجّ بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنَّة إن كانوا أهلًا للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيُعتذر لهم بما ذكره أهل العلم، ومن أحسن ما أُلِّف كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة؛ فلا يعتذر له.

الحادية عشرة: الشَّاهِد لِكَوْنِ الأعْمَال بِالخَوَاتِيم؛ لأَنَّهُ لَوْ قَالَها لَنَفَعَتْهُ.

الثانية عشرة: التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هٰذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ، لأنَّ فِي القِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إلاَّ بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكْرِيرِهِ؛ فلأجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُم اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.

● **الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم**: وهٰذا مبنيّ على القول بأنَّ معنى حضرته الوفاة؛ أي: ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.

● **الثانية عشرة: التأمُّل في كبر هٰذه الشبهة في قلوب الضالين... إلخ**: وهٰذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.

* * *

بَابٌ
ما جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

.....

قوله: «**سبب كفر بني آدم**»: السبب في اللغة: ما يتوصَّل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]؛ أي: بشيء يوصله إلى السماء. ومنه أيضًا سمّي الحبل سببًا؛ لأنَّه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر. وأما في الاصطلاح عند أهل الأصول؛ فهو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم. أي: إذا وجد السبب وجد المسبَّب، وإذا عُدِمَ السبب عُدم المسبب؛ إلاّ أن يكون هناك سبب آخر يثبت به المسبب.

قوله: «**بني آدم**»: يشمل الرجال والنساء؛ لأنّه إذا قيل: بنو فلان، وهم قبيلة؛ شمل ذكورهم وإناثهم، أمّا إذا قيل: بنو فلان، أي رجل معيَّن؛ فالمراد بهم الذكور.

قوله: «**وتركهم**»: يعني: وسبب تركهم.

قوله: «**دينهم**» مفعول ترك؛ لأنَّ ترك مصدر مضاف إلى فاعله، و«**دينهم**» يكون مفعولاً به.

قوله: «**هو الغلو**»: هٰذا الضمير يُسمى ضمير الفصل، وهو من أدوات التوكيد، والغلو: خبر لأن ضمير الفصل على القول الراجح ليس له محل من الإِعراب. والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحًا أو قدحًا.

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾[١].

والقدح: يُسمى ثناء، ومنه الجنازة التي مرّت فأثنوا عليها شرًّا[٢]. والغلو هنا: مجاوزة الحدّ في الثناء مدحًا.

قوله: «الصالحين»: الصالح: هو الذي قام بحق الله وحق العباد، وفي هٰذه الترجمة إضافة الشيء إلى سببه بدون أن يُنسب إلى الله بقوله: **«أنَّ سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»**، وهٰذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحًا، وذٰلك إذا كان السبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسول ﷺ: **«لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار»**[٣]؛ يعني: عمّه أبا طالب.

* * *

قوله: «وقول الله ـ عز وجل ـ»: يعني: وباب قول الله ـ عز وجل ـ.

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: نداء، وهم اليهود والنصارى: والكتاب: التوراة لليهود، والإنجيل للنصارى.

قوله: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾: أي: لا تتجاوزوا الحدّ مدحًا أو قدحًا، والأمر واقع كذٰلك بالنسبة لأهل الكتاب عمومًا؛ فإنهم غلوا في

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) من حديث أنس، رواه: البخاري (كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، ١/ ٤٢٠)، ومسلم (كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر، ٢/ ٦٥٤).

(٣) من حديث العباس بن عبد المطلب، رواه: البخاري (كتاب مناقب الأنصار، باب منقبة أبي طالب، ٣/ ٦٢)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، ١/ ١٩٤).

.....

عيسى بن مريم عليه السلام مدحًا وقدحًا، حيث قال النصارى، إنَّه ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة. واليهود غلوا فيه قدحًا، وقالوا: إنَّ أمّه زانية، وإنَّه ولد زنا، قاتلهم الله؛ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط أو تفريط.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾: وهو ما قاله سبحانه وتعالى عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾: هذه صيغة حصر، وطريقه ﴿إِنَّمَا﴾؛ فيكون المعنى: ما المسيح عيسى ابن مريم إلاّ رسول الله، وأضافه إلى أمّه ليقطع قول النصارى الذين يضيفونه إلى الله. وفي قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ إبطال لقول اليهود: إنَّه كذَّاب، ولقول النصارى: إنَّه إله. وفي قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ إبطال لقول اليهود: إنَّه ابن زنا.

وكلمته التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾: أنْ قال له كُنْ فكان.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾: أي: إنه عز وجل جعل عيسى عليه الصلاة والسلام كغيره من بني آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفًا وتكريمًا؛ كما في قوله تعالى في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]؛ فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: الخطاب لأهل الكتاب، ومن رسله محمد ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾: أي: إن الله ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾: ﴿خَيْرًا﴾: خبر ليكن المحذوفة؛ أي: انتهوا يكن خيرًا لكم.

.....

قـــولـــه: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأنَّه مالك لما في السماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام؛ فهو من جملة المملوكين المربوبين؛ فكيف يكون إلٰهًا مع الله أو ولدًا لله؟

* (تنبيه): لم يشر المؤلف رحمه الله تعالى إلى إكمال الآية، ونرجو أن يكون في إكمالنا لها فائدة.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: أي: كفى الله تعالى أن يكون حفيظًا على عباده، مدبرًا لأحوالهم، عالمًا بأعمالهم. والشاهد من هٰذه الآية قوله: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾؛ فنهى عن الغلوّ في الدين؛ لأنَّه يتضمَّن مفاسد كثيرة، منها:

١ ـ أنَّه تنزيل للمغلو فيه فوق منزلته إن كان مدحًا، وتحتها إن كان قدحًا.

٢ ـ أنَّه يؤدي إلى عبادة هٰذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣ ـ أنَّه يصدّ عن تعظيم الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأنَّ النَّفس إمَّا أن تنشغل بالباطل أو بالحق؛ فإذا انشغلت بالغلو بهٰذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه؛ تعلَّقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

٤ ـ أنَّ المغلو فيه إن كان موجودًا؛ فإنَّه يزهو بنفسه، ويتعاظم ويعجب بها، وهٰذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحًا، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هٰذا وهٰذا إن كانت قدحًا.

وَفي الصَّحِيح عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1].

قوله: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾: الدين يُطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل. والمعنى: لا تجعلوا عبادتكم غلوًّا في المخلوقين وغيرهم. وهل يدخل في هٰذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها؛ فإنَّ النبي ﷺ نهى عن ذٰلك[2]، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات تكميلاً للوارد أو غير هٰذا؛ فالنهي عن الغلو في الدين يعمّ الغلو من كل وجه.

* * *

قوله: «**وفي «الصحيح»**»: أي: في «صحيح البخاري»، وهٰذا الأثر اختصره المصنِّف، وقد سبق الكلام على مثل هٰذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾: أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾: أي: لا تدعن وتتركن، وهٰذا نهي مؤكد بالنون.

قوله: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾: هل المراد: لا تذروا عبادتها أو تمكنوا أحدًا من إهانتها؟

---

(١) سورة نوح: ٢٣.

(٢) كما في حديث عائشة، رواه: البخاري (كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، ١/ ٣٥٧)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته...، ١/ ٥٤٢).

.....

الجواب: المعنيان؛ أي: انتصروا لآلهتكم، ولا تمكِّنوا أحدًا من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضًا، بل احرصوا عليها، وهٰذا من التَّواصي بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

قوله: ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾: لا: زائدة للتوكيد، مثلها في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر؛ فهما دون مرتبة من سبقهما. قوله تعالى: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، هٰذه الخمسة كأن لها مزيَّة على غيرها؛ لأنَّ قوله: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنَّها كبار آلهتهم؛ فخصوها بالذكر. والآلهة: جمع إلٰه، وهو كل ما عُبِدَ، سواء بحق أو بباطل، لٰكن إذا كان المعبود هو الله؛ فهو حق، وإن كان غير الله؛ فهو باطل. قال ابن عباس رضي الله عنهما في هٰذه الآية: «هٰذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح».

وفي هٰذا التفسير إشكال، حيث قال: «هٰذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح»، وظاهر القرآن أنَّها قبل نوح، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٢]؛ ظاهر الآية الكريمة: أنَّ قوم نوح كانوا يعبدونها، ثم نهاهم نوح عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله وحده، ولٰكنهم أَبَوا وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وهٰذا (أعني: القول بأنهم قبل نوح) قول محمد بن كعب ومحمد بن قيس، وهو الراجح لموافقته ظاهر القرآن. ويحتمل ـ وهو بعيد ـ أن هٰذا في أول رسالة نوح، وأنَّه استجاب له هٰؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذٰلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم، لٰكن هٰذا بعيد حتى

قَالَ: «هٰذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا؛ أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِم: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيها أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولٰئِكَ، وَنُسِيَ العِلْمُ؛ عُبِدَتْ»[1].

من سياق الأثر عن ابن عباس. فالمهم أن تفسير الآية أن يُقال: هٰذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين، فطال على قومهم الأمد، فعبدوهم.

قوله: «أوحى الشيطان»: أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

قوله: «أن انصبوا إلى مجالسهم»: الأنصاب: جمع نُصُب، وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: «وسموهم بأسمائهم»: أي: ضعوا أنصابًا في مجالسهم، وقولوا: هٰذا ود، وهٰذا سواع، وهٰذا يغوث، وهٰذا يعوق، وهٰذا نسر؛ لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم فتنشطوا عليها، هٰكذا زيَّن لهم الشيطان، وهٰذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله إلاّ برؤية أشباح هٰؤلاء؛ فهٰذه عبادة قاصرة أو معدومة.

قوله: «ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولٰئك ونسي العلم؛ عبدت من دون الله»: ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مئة سنة، حتى إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرّق، فبعث الله النبيين؛ كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ [البقرة: ٢١٣] الآية.

---

(١) رواه: البخاري (كتاب التفسير، باب ﴿ودًا ولا سواعًا ولا يغوث﴾، ٣/ ٣١٦).

قَالَ ابنُ القَيِّم: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم».

هٰذا هو تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية، وهل تفسيره حجَّة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولاً إلى القرآن؛ فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ تفسيرها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، فإن لم نجد في القرآن؛ فإلى سنة الرسول ﷺ، فإن لم نجد؛ فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجَّة بلا شك؛ لأنَّهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في حكم المرفوع، وهٰذا ليس بصحيح، لٰكنه لا شك أنَّه حجَّة على من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بما يرجحه سياق الآية، والآية تدل على ما ذكره ابن عباس؛ إلاَّ أنَّ ظاهر السياق أنَّ هٰؤلاء القوم الصالحين كانوا قبل نوح ﷺ، وقد عرفت القول الراجح.

قوله: «الأمد»: الزمن. وهٰذا كتفسير ابن عباس؛ إلاّ أنَّ ابن عباس يقول: «إنهم جعلوا الأنصاب في مجالسهم»، وهنا يقول: «عكفوا على قبورهم»، ولا يبعد أنَّهم فعلوا هٰذا وهٰذا، أو أنَّهم قبروا في مجالسهم؛ فتكون هي محل القبور.

والشاهد قوله: **«ثم طال عليهم الأمد؛ فعبدوهم»**؛ فسبب العبادة إذًا الغلو في هٰؤلاء الصالحين حتى عبدوهم.

* * *